

تاريخ الاستلام: 2023/01/17 تاريخ القبول: 2024/10/07 تاريخ النشر: 2024/12/31

عبد القادر مرجاني *

المركز الجامعي الشريف بوشوشة - آفلو (الجزائر)

Email : a.mordjani@cu-aflou.edu.dz

الملخص :

حاولت رواية التسعينات الجزائرية تمثيل الراهن الجزائري بكل تناقضاته ومتغيراته الحضارية سيما بعد تلك الهبة الشعبية التي أودت بتقلبات سياسية وأفرزت التعددية عن نشوء تيارات دينية تتصارع مع القوى السياسية المعارضة بغية الوصول إلى السلطة، مما أنتج مناخا سياسيا مغائرا أودى إلى أزمة سياسية خانقة، عرفت خلاله البلاد مرحلة دموية عنيفة، لذلك حاول الروائي الجزائري المعاصر الاقتراب من هذه المرحلة التاريخية بغية تمثيلها واستيعابها استيعابا فنيا ودلاليا وفكريا، وتقديم توضيحات وتفسيرات عن هذا المجرى التاريخي الجديد .

تسعى هذه المحاولة عبر روايتي "غدا يوم جديد" و"الشمعة والداهليز" لإبراز هذا المنحى عبر مقارنة سوسيونصية لفهم واستيعاب هذه التوجهات والمنظورات الروائية الكائنة .

الكلمات المفتاحية: رجل الدين، التطرف، التقليدي، الحداثي، الصورة

Abstract:

The image of the desert woman as she is today, her features have been formed gradually and through the ages, and it is not possible for us to understand this development and this image only by knowing the environment in which she lived, and the extent to which she was affected and influenced by it. Women have contributed in the aspects of social, political, military, cultural and economic life. And benefit from it, and accordingly, in this research paper, we will try to identify the status of women in the desert society, and their role in building its social structure, and the most important aspects that distinguish them from the rest of the women of other regions, such as clothing and adornment materials such as eyeliner, henna, jewelry and tattoos, and this is based on the writings of travelers to dissect the composition Society and learning about the role of women in it, because these writings were more realistic and coexistent with women in their environment, in addition to the fact that the writer was free to convey his observations, record his observations, and write down his positions.

Keywords: Women - Saharawi Society - Algerian Sahara - Foreign Writings

المقدمة :

موضوع المرأة في المجتمع الصحراوي الجزائري خلال القرن التاسع عشر أهمية خاصة، تتجلى في:

✓ دراسة التاريخ الثقافي والاجتماعي لحياة المرأة خلال القرن 19م من أجل فهم الديناميكية الاجتماعية والثقافية في المجتمعات الصحراوية، وإظهار كيف كانت النساء جزءاً أساسياً من النسيج الاجتماعي، وكيف ساهمن في الحفاظ على التقاليد والقيم.

✓ التعرف على تأثير الاستعمار الفرنسي على وضع المرأة، ومحاولة فهم التغيرات الاجتماعية والسياسية التي طرأت على المجتمع الصحراوي، وكيف انعكست على النساء.

✓ توضيح صورة المرأة الصحراوية التي تبنى في عيون الآخر، مما يساعد على فهم التحيزات والقصص السائدة في ذلك الوقت، وانعكاس هذه الصورة في الكتابات الأجنبية.

وقد جاء مقالنا هذا ليسلط الضوء على صورة المرأة الجزائرية في البيئة الصحراوية المحافظة خلال القرن التاسع عشر من خلال الكتابات الأجنبية، لتحقيق جملة من الأهداف، منها:

✓ توثيق تاريخ المرأة في المجتمع الصحراوي، والذي غالباً ما يغفل في السجلات التاريخية، ويساعد ذلك في تقديم رؤية شاملة عن دورها وتأثيرها في المجتمع.

✓ دراسة حياة المرأة الصحراوية لفهم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وتحليل مساهمتها في الحياة اليومية والعادات والتقاليد في البيئة الصحراوية.

✓ تقييم تأثير الاستعمار الفرنسي على وضع المرأة من خلال دراسة الكتابات الأجنبية التي توفر رؤى حول التغيرات السياسية والاقتصادية، مما يساعد في فهم التحديات الجديدة التي واجهتها المرأة الصحراوية.

✓ إعادة تقييم الصور النمطية التي ربما تكون سادت حول المرأة الصحراوية بناءً على الكتابات الأجنبية، مما يساهم في تقديم صورة أكثر دقة وواقعية. باختصار، فإن دراسة حياة المرأة في المجتمع الصحراوي خلال القرن التاسع عشر تتيح فهماً أعمق للتاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر، وتساهم في إعادة تقييم دور المرأة في صنع الحدث التاريخي، وتثري النقاشات المعاصرة حول المرأة ومكانتها. وعليه، يمكننا طرح الإشكالية التالية:

ما هي المكانة التي حظيت بها المرأة في المجتمع الصحراوي؟ وما هي الخصائص البارزة التي تميز المرأة الصحراوية؟ وكيف أسهمت في تشكيل وتطوير النسيج الاجتماعي في هذا المجتمع؟

1. المرأة في الكتابات الأجنبية

شغلت قضية المرأة حيزاً كبيراً لدى المؤلفين الأجانب خاصة الفرنسيين، فكتبوا كل شيء عن وضعها الاجتماعي وخلقتها ولباسها وأعمالها وأوقات فراغها، وأصدروا أحكاماً على بعض الممارسات والتقاليد الإسلامية كتعليمها وحجائها، ومن أوائل الكتب الفرنسية التي اهتمت بالمرأة المسلمة الجزائرية كتاب يوجين دوماس Eugène Daumas (اسمه الكامل دوماس ميلشوار جوزيف يوجين Daumas Melchoir - Joseph- Eugène هو جنرال، سيناتور، وكاتب ولد يوم 04 سبتمبر 1803م قدم إلى الجزائر سنة 1835م تحت إمرة المارشال كلوزيل، درس اللغة العربية، وكون معلومات واسعة حول العادات الجزائرية، كلفه الجنرال بيجو بشؤون الأهالي في كامل الجزائر، وإعادة تنظيم المكاتب العربية، عين عام 1850م مديراً للشؤون الجزائرية لدى وزارة الحرب، رقي إلى رتبة جنرال سنة 1853م، ثم سيناتورا عام 1857م، توفي في سنة 1871م، له العديد من الدراسات حول الجزائر ككتاب قبائل الشرق 1844م، الصحراء الجزائرية 1845م، المجتمع القبائلي 1858،

الحياة العربية والمجتمع المسلم 1868م، ينظر: (Nacrisse Faucon, 1889, pp 196-197) المرأة العربية La Femme Arabe الذي ألفه في أربعينيات القرن 19م، ثم ظهر كتاب أرنست مرسويه المرأة المسلمة في الشمال الإفريقي سنة 1895م، ثم توالى الكتابات الفرنسية وتخصصت بعض المؤلفات مثل السيدة ماري بوجيجا Marie Bugèja، كما أن نساء مثل لوس وابن عابن اهتمت بالمرأة من وجوه أخرى كالتعليم والحياة الاجتماعية (أ. سعد الله، 1998، ص182).

أما الطيبة دوروتي شولير Dr. Dorothee Cheller جاء مؤلفها Voyage Envoyé en Mission Chez Les Dans L'Aures - Notes D'un Médecin Femmes Arabes وهو عبارة عن مذكرات شخصية لخصت فيها يومياتها في مهمتها الرسمية التي أوكلتها لها الإدارة الاستعمارية في منطقة الأوراس، وقد قدمت هذا العمل كهدية للدكتور "شانتوميس" وهو بروفيسور في كلية الطب بباريس، حيث لاحظت هذه الطيبة أن المرأة الشاوية تمتاز بليونتها في التعامل مع الفرنسيين أكثر من المرأة العربية التي ترفضهم رفضا تاما، وقد ساعد الوضع الصحي المتدني للمرأة الأوراسية في تسهيل مهمتها خاصة وأن الجزائريين يرفضون تطبيب نساءهم على أيدي الرجال، لذلك وجدت ظالتها في تطبيب الجزائريات باعتبارها أثنى مثلهن، وقد قدمت وصفا دقيقا للوضع الصحي السائد آنذاك والخريطة الطبية للجزائريين الممثلة في السحرة، الدجالين، مدعي العلم والولاية إضافة إلى المرأة القابلة التي لا تفقه في الطب شيئا وفي سبيل التواصل الجيد للطبية مع النساء الأوراسيات استنجدت بآبنة مرابط من قبيلة "ماداغ" (المعذر حاليا، وهي إحدى بلديات ولاية باتنة) (Dr. Dorothee Cheller, 1895).

كما نجد ماتياس غودري Mathéas Gaudry في كتابها La Femme Chaoui de l'Aures تناولت فيه أيضا الحياة اليومية للمرأة الشاوية، وتعرضت من خلاله لكل ما يخصها من عادات وتقاليده ومسؤوليات وانحرافات، يمكننا اعتبار

هذا الكتاب صورة عن المجتمع النسوي الشاوي من منظور حقوقي فرنسي هذا إذا علمنا أن Gaudry هي محامية لدى محكمة الاستئناف في الجزائر، وتعتبر كتاباتها عن النضج المنهجي والمعرفي في التقارير الفرنسية فالقارئ لأعمالها يلاحظ الدقة والوضوح والبعد النسبي عن الإيديولوجية الكولونيالية (Gaudry Mathéas, 1932, pp159-168).

ومن أعمالها أيضا مقالها في مؤتمر النساء المتوسطيات **Le Congrès International des femmes Méditerranéennes** المنعقد في مدينة قسنطينة أيام 29 ، 30 و 31 مارس 1932 هذا المؤتمر نظمته "الوحدة الفرنسية من أجل تصويت النساء L'Union Française pour le Suffrage des Femmes برئاسة السيدة Malaterre- Sellier نائبة رئيس هذه الجمعية في شمال إفريقيا، وقد تناولت في هذا المقال الدور الاجتماعي للمرأة في المجتمع المعاصر، ومكانتها الاقتصادية إضافة إلى عرضها بعض الانحرافات النسوية وعلى رأسها ممارسات البغي والدعارة، وقضايا التعليم والوضع القانوني للمرأة في بلدان شمال إفريقيا بصفة عامة وفي الجزائر بصفة خاصة، وكحوصلة عامة يعد هذا التقرير مليء بالمادة الخبيرة حول الوضع العام للمرأة الجزائرية في الربع الأول من القرن العشرين (Gaudry Mathéas, 1932, p168).

أما غواشون Goichon تمحور عملها الأكاديمي حول المرأة الجزائرية في إقليم بني ميزاب "La vie feminine au M'Zab"، وهو يعد العمل الأول من نوعه، حيث قامت فيه الباحثة بالتوغل في المجتمع الجزائري، والتطرق لكل ما يخص الحياة النسوية في بني ميزاب، جاء هذا العمل في جزأين (حوالي الألف صفحة) تميز بالدقة والصرامة الموضوعية والمنهجية، تطرقت فيه الباحثة لمختلف مكونات الشخصية

النسوية ونمط معيشتها ومختلف ممارستها الطقوسية والعقدية والفكرية، ووضعها الاجتماعي في ظل المنظومة الذكورية (Goichon (A.M), 1927).

ورغم الدور المهم للمرأة داخل الأسرة فإن هذه الأخيرة، لم تتح لها الفرصة للعب دورها كعنصر فاعل داخل المجتمع، إذ أن الصورة التي رسمها الرحالة الفرنسيون للمرأة الجزائرية صورة سوداء قاتمة، فهي ذلك الكائن المسلوبة إرادته وحقوقه، ومنهم من ذهب إلى القول بأن الجزائر لها كل شيء عدا المرأة، المرأة لا توجد بالجزائر، المرأة الروح، والمرأة الكائن الجميل المرهف الأحاسيس، يقول بنجامين غاستينو GASTINEAU Benjamin "الجزائر لها الصحراء، الواحات، البحر والجبال، لها سماء رائعة على الدوام، أرض خصبة، وغابات من البلوط الأهلة بالأسود والفهود، منابع باردة ومياه معدنية حارة، خيول تحسدها عليها كل أوروبا، محاجر من الرخام ومناجم من الذهب والفضة والحديد والرصاص، الجزائر... لها كل هذه الفضائل، وهذه الثروات، كل هذا الجمال، ولكن ليس لها المرأة" (أ. دواس، 2008، ص 47).

ويؤكد فرومونتان على هذه الوضعية المزرية التي كانت تعيشها المرأة الجزائرية عموما حين يكتب لأحد أصدقائه، ما سأقوله لك عن الظروف القاسية للمرأة العربية ليس جديدا، فأنت تعلم الوضعية التي يمنحها لها الزواج فهي في الوقت نفسه الأم والحاضنة، العاملة، الحرفية، سائسة الخيل، الخادمة، ويرى البعض أن من الخصائص المميزة للمجتمع الجزائري منزلة المرأة فهي سيدة البيت، لكنها محجوبة عن الشوارع، ومحرومة من التعلم والشغل، وبالرغم من الدور الإيجابي الذي تمارسه المرأة داخل المنظومة الاجتماعية فإن حقوقها مهضومة، وإن حاولت المطالبة بها أو التوجه إلى العدالة لتأخذ لها هذه الحقوق، يؤكد غاستينو هذه الوضعية بقوله: "عبثا تحاول بعض النساء القويات الشكوى أمام القاضي من سوء معاملة أزواجهن، فنادرا ما ينصف القاضي تظلمهن. وهكذا فالأحسن لهن

أن يعانون صامتات، خاضعات لقسوة الزوج، إلى أن يخلصهن الموت، ويتحولن إلى حوريات من حوريات جنة محمد" (أ. دواس، 2008، ص48).

2. دور المرأة في بناء النسق الاجتماعي الصحراوي

إذا كانت القبيلة هي الخلية الأساسية في تركيبة النظام الاجتماعي لدى

المجتمع

الصحراوي، فإن الأسرة هي معين هذه الخلية الكبرى، تستقي منه قوتها وصوريتها، والمرأة أهم روافد هذا المعين إذ أنهما تشكّلان قوامه ودعامته الرئيسة، فالأسرة هي الدرع الواقية له من الآفات، وكما جاء في قواميس اللغة فالأصل اللغوي لمعنى الأسرة أنها "الدرع الحصينة" وأسرة الرجل: أهله وعشيرته الأدنون، والأسرة واحدة من أهم النظم الاجتماعية، وهي الجماعة الأولية التي يفتح الأطفال- في الظروف الطبيعية- عيونهم عليها، فللأسرة تأثير في أعماق شخصية الفرد، وهي لا تخلو من الترابط والتعاون والألفة، بل إن هذه الصفات هي أهم الملامح المميزة للأسرة" (أ. دواس، 2008، ص46).

وعليه فعماد الأسرة هي المرأة، فهي تقوم بأدوار متعددة وبواجبات مرهقة، (الإيجابي-الاجتماعي-الإنتاجي) فتربي الأطفال وتدبر المنزل وتشارك زوجها في رعي الغنم وسياسة الخيول وجلب الماء في الأواني والقرب، وهي وحدها التي تتولى نسج وحيكة أفرشة المنزل ومعظم لباس الرجل المتمثل في البرنوس والقشابية ولباسها كالحائك (Eugène Fromentin, 1981, pp101-174)، والرجل ليس له تبعات يتحملها في علاقته بالمرأة سوى أن يوفر لها الغذاء والكساء والسكن، إنها علاقة أشبه بعلاقة التابع بالمتبوع، والعبد بالسيد بل إن المرأة هي تقريبا التي تخدم مجموع من هم في المنزل (Eugène Fromentin, 1981, p165).

والى جانب هذا الدور فإن للمرأة الصحراوية مهام إنتاجية أخرى، فهي تساهم إلى جنب الرجل في قطع الحشائش الضارة، وجمع بعض الخضر لتحضر منها أكلا لأسرتها، كما تسقي النخيل والأشجار وتجمع العلف الذي تطعم به الأغنام التي تربها، كما أن البعض منهن يقمن بتسويق منتجاتهن الفلاحية من قمح وحبوب (حبة حلاوة-السانوج) (أ. طواهرية، 2014، ص65)، وتصنع بعض الأواني الفخارية مثل الطاجين والقصري، وتصنع من سعف النخيل القفاف والطبوقة (مفردها: طق) التي تساعد في إعداد الكسكس كما تصنع أدوات زيتها من ذلك التدارة والبخار التي تضع فيه البخور الذي تتعطر به، تقوم المرأة الصحراوية بكل هذه الأنشطة وبشكل دائم تقريبا بكل صبر وتحمل ودون تذمر (ر. رمضان، 2012، ص108).

والمرأة الصحراوية لها دور بارز في الحياة الاجتماعية، فهي محترمة إلى أبعد الحدود لا تضرب ولا تهان، ونظرا لقيمتها التي تتمتع بها داخل المجتمع توكل مهمة تربية الأبناء لها، كما لا ينتشر تعدد الزوجات بالمجتمع الطارقي رغم أنهم يدينون بالإسلام الذي يبيحه (G. DEMAGE, 1903, p105)، كما أنها مثقفة تحفظ الشعر وتروي أشعار العرب وقصصهم، وكثير منهن شاعرات وعالمات خاصة في النحو وعلوم الدين وعلوم اللغة، ويروين قصائد فحول شعراء ما قبل الإسلام، كما كان النسوة في الصحراء يقومون بتبليح بناتهن وذلك بغصهن على الأكل وشرب اللبن حتى يصبحن سمان الأرداف ممتلئي الجسم وخصورهم ضيقة وأجسامهم مكتنزة، والمرأة الصحراوية لا تختفي ولا تحتجب فهي تجلس للرجال وتدارس معهم الأدب والقصص وتطرح معهم الشعر وأيام العرب (م. القشاط، 1994، ص163).

2.1 الزواج:

وهي تتمتع بالكثير من مزايا، فلها حق التملك واختيار الزوج والاحتفاظ بالأبناء وتدير شؤون البيت وتربية أبنائها وسط عائلتها، كما يحق لها هجر الزوج وطلاقه، وهي عادات استثنائية في المجتمعات الصحراوية، كما لها الحق في استقبال

الضيوف وإكرامهم في غياب الزوج، وهذا يمنحها مكانة اجتماعية كبيرة، كما أنها المسؤولة عن تدبير أمور الأسرة والحي، وفي حال الطلاق تحصل المرأة الطارقية على كل ما تملكه الأسرة (ع. زنردي، أ. حجاج، 2019، ص118).

عندما تكون الفتاة في سن الزواج تلعب الأم دور المرشد في بداية مثل هاته الحفلات خاصة عندما يبدأ عازف المزمар (الغايطة) في شوارع القصر بالعزف فتخرج فتيات القبيلة إلى مكان عام فيبدأن بالرقص ويلبسن أحسن ما لديهن ويتجملن، أما النساء العجائز أو الصديقات المتزوجات فيبدأن بتوجيه النصيحة لهن وغرس فكرة أن الزواج هو طريق السعادة الأبدية، لأن الفتيات في المجتمعات الصحراوية كنا يمنعن من الخروج، فتصبح هذه الاحتفالات السبيل الوحيد للتعرف بهن قصد الزواج، وكانت الفتيات يمارسن رقصة مميزة تسمى التاكوكا (هي كلمة زناتية معناها بالعربية أن الإنسان يكون في حالة هيجان ويزداد كذلك كلما زادت الأهازيج والموسيقى (حسب تفسيرات سكان المناطق الصحراوية)، يقفن الفتيات على شكل دائري أو على شكل صف، بحيث أن مرافقهن مضمومة إلى بعضهن البعض، والأيدي يصعدن من الأسفل إلى الأعلى والعودة، ونفس الشيء بالنسبة للشباب الذين يقفون في الصف المقابل، وعندما يعجب شاب بفتاة يتقدم إلى إليها ويضع منديلا من حرير على مرأى الرجال الآخرين وكأنه يقول بأن هاته الفتاة ستكون زوجتي، فيزغرد النساء فرحة بما قد تم وتعتبر هذه الخطوة الأولى للخطوبة، ثم يتوجه إلى أبويها لطلبها وإتمام أمور الزواج. ينظر: Eugène Daumas, 1853, pp35-36)، ويلاحظ على هذه الاحتفالات أن عدد النساء المتواجدات يكون أكبر من عدد الرجال، لأنها تعتبر فرصة لعرض أنفسهم من أجل الزواج (ع. حساني، 2007، ص32).

وقبل الزواج فإن العريس مطالب أن يبعث لعروسته في الأعياد الدينية وأحيانا يوم الجمعة بعض الهدايا المتمثلة في مادة الزيت التي تعتبر أساسية لتجميل الشعر، كما يرسل لحم الماعز أو الإبل وإثنان أو ثلاث زنات من الحبوب من قمح وشعير، أما المهر فإنه يتكون من زربية بني ميزاب (تسمى أيضا بالفراشية) وبعض الحلي حسب القانون العام للقبائل (Eugène Daumas, 1853, p36).

لقد كان النسوة يتزوجن في سن مبكرة، فلا تجد بين المرأة والطفلة سن وسط، والفتاة الشابة في هذا المجتمع هي الفتاة الصغيرة، فتخطب لعشر سنوات وتزوج لإثني عشرة سنة ولسته عشرة سنة يمكن أن تكون المرأة لثلاث عشرة سنة (Eugène Fromentin, 1981, p161).

وقد رأى فرومنتين بأن هذا الزواج تكون فيه الفتاة مجبرة لعجزها عن مقاومة سلطة الآباء المدعمة بالعادات والأعراف المتوارثة، مما يجعلها تحمل على كاهلها أعباء إضافية ثقيلة لا تناسب وقدراتها الجسمية والعقلية كالحمل والإنجاب والإرضاع والتربية (Eugène Fromentin, 1981, pp 207-211).

والزواج عند الطوارق يقع عادة -وليس دائما- داخل العشيرة وفي الدرجة الثانية من القرابة، وطفل الطوارق يرث الجاه والثروة عن طريق الأم، وذلك بغض النظر عما إذا كانت تنتمي إلى عشيرة أبيه أم لا، ولكن الميراث عند الطوارق يجري حسب قواعد الشريعة الإسلامية (للذكر مثل حظ الأنثيين)، وأطفال الطوارق يتربون في حضن العشيرة التي ينتمي إليها الأبوان، والأرملة وأطفالها غير المتزوجين غالبا ما يعيشون في كنف الأخوال، ومتى كان أحدهم متزوجا عاشت أمه وإخوته معه، واحتفاظ الرجل بزوجة واحدة هو قاعدة بين الطوارق (إ. العربي، 1983، ص177).

والعرف والتقاليد تمنح العروس الحق بأن تحتفظ لنفسها بكل ما تملكه بما في ذلك الماشية، وذلك في الوقت الذي يتولى فيه الرجل جميع النفقات المنزلية،

وتكاليف حفلة الزواج من جيبه الشخصي، على أن المرأة تستطيع المساهمة في هذه التكاليف والنفقات إن شاءت ذلك، وهذا كله يتفق مع أحكام الشريعة السمحاء، والمرأة الطوارقية تعامل بكثير من الاحترام والتبجيل ولو أنها لا تتحمل أية مسؤولية اجتماعية خارج حدود منزلها (إ. العربي، 1983، ص 177).

كما أن المرأة الطارقية هي من تقوم بصناعة الخيمة، وبصفة أدق أم العروس هي من تقوم بذلك، فالمتزوجون لا يمكنهم الانعزال والاستقلال إلا بعد أن تستكمل أم العروس خيمة ابنتها وإرفاقها بجميع لوازمها، حيث تشرع في صناعتها بعد مراسيم العرس، وقد تصل مدة تجهيزها إلى سنتين أو أكثر، وهذه المدة كفيلة بأن يولد للزوجين المولود الأول وهم في خيمة أهل العروسة (ع. زندي، أ. حجاج، 2019، ص 120).

2.2 الولادة:

المرأة الصحراوية أينما كانت أو وجدت لا بد لها من أن تلد بجوار أمها إن كانت باقية على قيد الحياة خاصة عند طوارق الإموهاغ، حتى تقوم الأم بمساعدة ابنتها في التكفل بالمولود الجديد، وهو ما يدل على أن التنشئة الاجتماعية تركز على المرأة أكثر منها على الرجل، وذلك لكون المرأة هي المالكة للخيمة ولها الحق في التصرف فيها، وكل الأمور تعود إليها في تسيير بيتها والتحكم فيه، وهو ما يسمح للمرأة بأن تحافظ على الإرث ونقله لأبنائها عن طريق التوارث الاجتماعي (ع. زندي، أ. حجاج، 2019، ص 120).

يحتفل الصحراويون بالمولود أيما احتفال، وما إن تلد المرأة تحت رعاية العجائز كبار السن حتى يعلم الرجال بالمولود ونوعه، وفي اليوم الثالث تذبح الذبائح ويحضر المولود لوالده ليراه مع الرجال، فيستلمه أحد العلماء فيؤذن في أذنه ليكون مسلماً خالصاً، ويحنكه ويختارون له عدة أسماء ويجرون قرعة بينها حتى يفوز أحد

الأسماء ثلاث مرات فيسمونه به وفي بعض القبائل يكون يوم التسمية هو اليوم السابع (م. القشاط، 1994، ص166).

والصحراويون يسمون أولادهم في أغلب الأحيان اسما ثنائيا كأن يسمونه (محمد الأمين) أو (أبو بكر الصديق) أو (سيدي أحمد) أو (بابا أحمد) وغيرها من الأسماء، وعند ذكر اسم الرجل يقولون (محمد محمود ولد أحمد) في غرب الصحراء ووسطها، أما في شرق الصحراء فتختصر كلمة (ولد) إلى (ود) وذلك للسرعة في اللهجة، أما في شمال الصحراء فتقال كلمة (بن) أو (ابن) وهي تستعمل في كامل الشمال الإفريقي (م. القشاط، 1994، ص167).

2.3 المرأة الصحراوية والحياة السياسية:

أما في الحياة السياسية فقد وصلت المرأة للحكم ومثال على ذلك لالة عيشوش التي تولت الوصاية على ابنها عبد الرحمان، وقد كان ذلك سابقة في تاريخ بني جلاب وما ساهم في ذلك تدهور وضعف سلطنة بني جلاب بسبب الفتن والدسائس داخل الأسرة الحاكمة، واتصفت لالة عيشوش بالقوة بدليل أنها قامت بقتل شقيق زوجها ليجلس ابنها على عرش السلطنة، وقامت برسم العلاقات الخارجية لوادي ريغ (إ. قادري، 2001، ص42).

وهناك مثال آخر عن مشاركة المرأة في الحياة السياسية وهي داسين ألت يمة، هي امرأة طارقية كانت فائقة الجمال، وهي بنت عم موسى أق أمستان، عرفت بقول الشعر والغناء، توفيت بتمنغاست سنة 1935 (Berthoin, A. Maraval, 1934, p16)، تحدثت عنها المصادر الفرنسية وعن تقدير الطوارق لها احتراما لمكانتها، وهي من نبيلات "كل إغلا" ومن سلالة تين هيناين (هي امرأة متدينة من أصل بربري، هجرت صحراء المغرب واتجهت نحو بلاد الهقار وبالضبط إلى واحة سيلات مع خادماتها طكمة، ويعتبرها الطوارق جدتهم الأولى. ينظر: Lhote Henri, 1955, pp212-214)، تزوجت داسين مرتين، الأولى زوجها والدها، والثانية تزوجت من أفلان أق دوا (Aflan

(Ag Doua) (هو ينتمي إلى قبيلة إيفوراس، وهي القبائل التي تقطن منطقة أدرار وأرلي وبالضبط بمنطقة عين إنزال. ينظر: Gorrée Georges, 1946, pp 338-339) كانت داسين تحيي سهرات الأهال (هي سهرات موسيقية كانت تقام في مخيمات الطوارق للاحتفال بعرس أو الانتصار في غزو أو الاستعداد للحرب، أو قتال تقام بعيدا عن الشيوخ، إذ يحضرها الشبان ذكورا وإناثا وتقود الفرقة الموسيقية الغنائية امرأة تعزف على آلة الإمزاد وتغني الأشعار وترد عليها النسوة. ينظر: Lhote Henri, 1955, pp 330-331) بالعزف على آلة الإمزاد، وتغني أشعارا جميلة، كما كان يستدعيها "موسى أق أمستان" لحضور اجتماعات القبيلة حتى تدلي بآرائها وتقدم مقترحاتها، كما كانت تزورها شخصيات رسمية بعد الشهرة التي بلغتها، خاصة بعد وفاة "شارل دوفوكو"، فتردد عليها الكتاب والعساكر لمعرفة أخبار وحياة شارل وسط الطوارق (أ. هاشمي، 2019، ص 87).

إن المرأة الصحراوية تتمتع بمكانة خاصة وباحترام كبير خاصة المرأة الطارقية، وحتى أبنائها ينسبون إليها، وفي هذا الصدد يقول قاست Gast "إن السلم الاجتماعي عند الطوارق (إموهاغ) بنفوذ المرأة لأنه مجتمع أمومي" (Gast, 1987, p 25) ، وكذلك تحدث عنهم ابن بطوطة عندما قال: "إن الأبناء عند قبائل الإموهاغ لا ينسبون إلى الأب بل ينسبون إلى الخال، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته" (ابن بطوطة، 1964، ص 194) ، أي أن الابن يتبع أمه لا أبيه، كما أن الحكم يتوارث من جهة الأم، حيث القاعدة تقوم على أن خليفة "أمنوكال" هو ابن أخته الكبرى، وابن خالته، وابن أخواته الصغيرات، وليس أبنائه، ويمكن تفسير هذا بالتكوين الشخصي للفرد، وأن الخط الأمومي يحافظ على الملك كما تحافظ الأم على ابنها وكما تحافظ النساء على العادات والتقاليد، حيث نجدهن يدافعنا على الهوية بكل حماسة عكس الرجال، الذين أثر عليهم الترحال الذي أبعدهم عن

الحنين إلى الأرض، فالرجل أقرب إلى بيع الأرض من المرأة، التي لها عهد بالأرض وارتباط روحي بها، لذلك كان الملك في خط أمومي كونه مرتبط بالأرض، وبذلك فهي الناقل للإرث الاجتماعي، والحافظ للإرث المادي والمالكة لحق الانتساب، وناقلة للجاه لأبنائها، إضافة إلى ما لها من مكانة وحرية في وسط مجتمعها (ع. زندي، أ. حجاج، 2019، ص 117).

3. أهم مظاهر تميز المرأة الصحراوية

للمرأة الصحراوية طقوسها وخصوصيتها في الاهتمام بجمالها وزينتها وملابسها الخاصة، ومن مظاهر هذه الزينة عند النساء الصحراويات الوشم والحناء والكحل والحلي كنماذج طاغية لدى كل نساء الصحراء، فهن في الغالب قصيرات القامة ونحيلات، وهنا لا يكتنزن شحما عند الشيخوخة إلا نادرا خلافا لما هو مألوف لدى الفرنسيين، وبين سن 25 و40 تكون وجوههن بارزة التقاطيع والملاح وتكون أجسادهن نحيفة وأطرافهن نحيلة، قوامهن وإن كان ممشوقا فإنه يفتقد للأناقة والرشاقة، أعينهن سوداء وذات نظرات حادة وأسنانهن بيضاء مستقيمة، ولكن جمال الصحراويات يفتر في سن مبكرة بسبب وطأة الأشغال المضنية التي تخلق عنها الرجل وتحملتها هي (ف. جاكو، 2013، ص 284).

3.1 ملابس المرأة:

يختلف لباس المرأة الجزائرية من منطقة إلى أخرى، فلباس المرأة الحضرية يختلف على لباس المرأة البدوية، واللباس اليومي يختلف عن لباس المناسبات، إلا أن لباس المرأة الصحراوية له ميزة خاصة فهو يتمثل في "الحايك" وهو لحاف (الملحفة: لباس المرأة الصحراوية موحد من الساقية الحمراء إلى المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر مروراً بشمال مالي وشمال النيجر وشمال تشاد وشمال السودان، وهو عبارة عن ثوب طويل تخلله على كتفها من الأمام وتديره حول جسمها وتضع طرفه فوق رأسها وتحذف الباقي على كتفها الأيسر، ويسمى ملحفة وهو من القماش

القطني، كما نجد المرأة الصحراوية تضفر شعرها بطريقة موحدة أيضا، وتعتبر المرأة العربية في الصحراء كشف الرأس عورة، أما الوجه والقدمان واليدان فهي مكشوفة. ينظر: م. القشاط، 1994، ص 176) من الصوف الأبيض ونوع من الثياب منزوع الكمين من نفس الصوف، أو من القماش الخشن وغالبا ما يكون أصفر أو أخضر اللون، تتخلله رسومات لباقات من الأزهار ومن نعال مغربية وحزام من الحرير بالنسبة للغنيات منهن، وفي بعض الأحيان يتشكل من قميص رقيق من الحرير أو من القطن مقطوعة من الأمام مثل قميص الرجل وتنزل حتى الوتد، والأكمام ذات أطوال غير منتظمة وهي أوسع من عرض القميص في حد ذاته، ولكنها غير مفتوحة إلا من عظم الكتف إلى الورك، وتتخللها عدة قطع من أقمشة حريرية متعددة الألوان، ومن الغريب أن هذه الأشكال تجعل من القميص باهض الثمن، كما تلبس النساء القفطان الحريري الذي ينزل حتى بطة الساق، وهو ليس له أكمام وهو مفتوح تماما من الأمام، كما تزين المرأة الجزائرية بحلة ذهبية متكونة من الذهب والماس والزمرد، كما أنها تضع الأساور والخلخال الذي يكون وزنه معتبرا (أ. دواس، 2008، ص ص 142-143).

لقد لاحظ فرومنتين (ولد أوجين فرومنتين Eugène Fromentin بمدينة لاروشيل بفرنسا في 24 أكتوبر 1820، وهو ابن طبيب، كانت هوايته الرسم وقد كانت أسرته تقضي أيام فصل الصيف من كل سنة بمنزل جبلي موجود بمدخل قرية سان موريس، وقد كان فرومنتين يعاني من الوحدة والعزلة ويعيش أحلامه ويرهف حسه لروائح الأشياء القديمة، أمضى فترة دراسته بكوليج "روايال" بمدينة لاروشيل وبعد مشوار علمي ناجح غادر بلده سنة 1839م متجها إلى باريس لدراسة الحقوق، وتحصل عام 1843م على الليسانس، وقد قام فرومنتين بثلاث رحلات إلى الجزائر الأولى عام 1846م بدعوة من الرسام شارل لابي، والثانية في 03 أكتوبر 1847م رفقة

بعض الرسامين، والثالثة عام 1852م رفقة زوجته ووصل فيها إلى غاية الأغواط وتاجموت وعين ماضي، وهي أطول رحلاته حيث دامت 09 أشهر، ينظر: Eugène Fromentin, 1981, p IX et 260) أن الجميع رجالا ونساء يشتركون في ارتداء اللباس الفضفاض الذي ورثته لهم بيئتهم الصحراوية وحياتهم الهادئة، فقد كان هذا اللباس يناسب جميع طبقات السكان في الماضي، فكما هو لباس الزاهد المتقرب إلى الله ولباس الراعي المسكين فهو أيضا لباس للأمراء المنهمكين في الملاذ والشهوات (Eugène Fromentin, 1981, pp 169-170)، هذا اللباس بتصوير الكاتب يمنح المرأة وضعية قرد عندما تفرص ووضعية تمثال عندما تقف (Eugène Fromentin, 1981, p161).

وهذا التشبيه لفرومنتين مستمدا من نظرتة للأشياء التي تحكمها ملاحظاته كرسام وفنان يميل دائما إلى تشبيه الأشياء المتقاربة في شكلها وهيئتها، ويقدم فرومنتين من خلال مشاهداته صورة شرقية للأسرة الجزائرية تبرز دور كل من الرجل والمرأة والأطفال والعلاقة بينهم في مجتمع تقليدي متخلف في نظره.

ومن جانب آخر يمكن التعرف على الوضعية الاجتماعية العامة للمرأة الصحراوية، وذلك عندما يتمكن من وصف جسم المرأة الأغواطية لأن لباسها تارة يشف وتارة يقصر وطورا يكون مجسما للأعضاء، لأن نساءهم فقيرات وبائسات يرتدين لباسا قديما وأطمار بالية، والنساء بعين ماضي لم يمكن من وصفهن لأنهن يرتدين الملحفة ومستورات بإحكام وذلك راجع إلى تورعهن وتدينهن (Eugène Fromentin, 1981, p231)، ويقدم فرومنتين المرأة الصحراوية بصفة عامة مستورة داخل هذا الحجاب، وإن ستر وجودها الفيزيقي بهذا اللباس الذي يلف جسمها كلية يعد في منظور المثقف الأوروبي تجسيدا حقيقيا لكل معاني التغطية العقلية والاجتماعية المحملة بدلالات القهر والتخلف والوعي السلبي.

أما نساء الطوارق فيلبسن ثوبا مصنوعا من القطن يتدلى من الخصر حتى ما تحت الركبة وسروال فضفاض مثل سروال المدينيات في الجزائر ولو أنها اقصر قليلا وكذلك يلبسن نوعا من "القندورة" بيضاء وأخرى زرقاء فوقها، ويتوج كل ذلك شال ووشاح يغطي الرأس أزرق مصنوع من القطن، وكذلك كانت الطوارقيات في الماضي يلبسن في الصيف نوعا من القبعات واسعة الحواشي مخروطية الشكل مصنوعة من القش ولكن هذا اللباس اختفى الآن تقريبا (إ. العربي، 1983، ص 185).

وتصف إيزابيل إبيرهاردت النساء الصحراويات فتقول: "أما وجوه النساء فكانت أكثر اسمرارا، متغضنة، العجائز درداء، ببناء ثقيل من صفائر شعر أبيض محمر بالحناء، من صفائر الصوف الأحمر، والأطواق والمناديل... أما الفتيات فقد كانت وجوههن مغرية وموصدة، ذات سمات قوية نسبيا ولكن نقية ومتجانسة، في سحنة داكنة، كانت عيونهن كبيرة مندهشة ووجلة... الكل ملفوف في ملحفة زرقاء داكنة، سوداء تقريبا، مثنية على الطراز القديم"، ثم تواصل فتصف لباسهن: "يخيم صمت مدائن الجنوب على بوسعادة، في المدينة العربية ينذر المارة غير أنه في الوادي تتجول أحيانا كوكبة من النساء والفتيات في أثواب ساطعة، يطغى عليها تعدد الألوان الوردية والصفراء والحمراء والزرقاء وغيرها" (G. DEMAGE, 1903, p105).

وعلى عكس المجتمع العربي، تعتبر المرأة الطارقية نظيرة الرجل، فهي كثيرا ما تكون متعلمة، ولها الحق في اختيار الزوج، ونظرا لقيمتها التي تتمتع بها داخل المجتمع توكل مهمة تربية الأبناء لها، ودائما وللسبب نفسه، لا ينتشر تعدد الزوجات بالمجتمع الطارقي رغم أنهم يدينون بالإسلام الذي يبيحه (G. DEMAGE, 1903, p105).

3.2 الوشم (Tatouage):

هو سمة بارزة لدى المرأة البدوية الصحراوية حتى ليخيل للمرء أن تلك الأوشام ونساء البدو خصوصا، يوشمن ظاهر اليد، العنق، وسط الشفة السفلى ووسط الجبين، والوشم تمارسه النساء خاصة بواسطة إبرة، حيث يضعن تحت الجلد عجينة مصنوعة من ورق شجرة النيلة، والرماد، وأوراق نبات الأفانية السوداء، وهو نوع من البادنجان، ويعتبر الوشم إضافة إلى كونه وسيلة من وسائل التجميل، رمزا للانتماء لقبيلة أو لأخرى (VOISIN, André-Roger, 2004, p134).

3.3 الحناء (Laousonia Inermis):

تخضب المرأة العربية في الصحراء يديها ورجليها بالحناء في مواسم الأعياد وعاشوراء والمولد النبوي والأفراح (م. القشاط، 1994، ص176)، وهي نبتة تزرع في كل الواحات الصحراوية، وتستعمل الحناء للدواء وللتجميل، ولهذا الأخير تجفف أوراق هذا النبات، ثم تطحن وتدق إلى أن تصير غبارا، ثم يضاف إليها لنتحصل في الأخير على عجينة يوضع لعدة ساعات على المكان المراد صبغه من الجسم، ونادرا ما يستعمله الرجال إلا في الأصابع، والبعض وهو قليل يحني يدا واحدة، أما النساء فيحنين الأصابع، اليدين والرجلين (Largeau Victor, 1881, p 75).

3.4 الكحل (Sulfure d'antimoine):

لا يفارق قارورة المرأة الحقيقية ويستعمل في الكحل صبغ الأشفار والحواجب، لإعطاء بريق أكثر للعينين، وعلاوة على ذلك فالكحل يعتبر دواء مهما لرمد العيون، هذا المرض المنتشر كثيرا بالصحراء، ويستحضر بعدة طرق، أحيانا من كبريتات النحاس، والشب المحترق، كش القرنفل، المسك، الزعفران، وصمغ جاوة...الخ، ثم يخلط الكل ويدق إلى أن يصير مسحوقا.

3.5 الحلبي (Bijoux):

وهي من الزينة التي لا تتخلى عنها المرأة الجزائرية عموماً، ومن بين الحلبي التي تتخذها المرأة الصحراوية للزينة الأشناف وتلبس في الأذنين، والأشناف أو الشنوف من الحلبي التي تضعها المرأة دوماً، ولا تترعها أبداً، وتصف إبيرهاردت حلبي المرأة الصحراوية فتقول: "كانت العجوزان ترتديان ملحفتين داكنتي الحمرة يشكل صوفهما الكث ثنايا ثقيلة حول جسديهما الموميائي، والتسريحة وفق عادات البلد، بضفائر صوف أحمر وضفائر شعر شهباء مخضبة بحناء برتقالي نير لونها، وفي أذنيهما المتعبتين حلقات ثقيلة، بسليسلات فضية مشبوكة في المناديل الحيرية للتسريحة. وعلى الصدر الهابط قلائد من قطع الذهب والعجائن المعطرة، وصفائح ثقيلة من الفضة المرصعة؛ ومع كل حركة من حركاتها المتباعدة والبطيئة ترن كل هذه الحلبي والأساور والخلخيل" (ف. جاكو، 2013، ص 284).

بالإضافة إلى العقود والأساور وبعض الخواتم والحلقات التي تزين أصابع وأذرع وأرجل النساء من ذوات الشأن اللائي يقمن بصبغ أشفاهن باللون الأسود وأضفاهن باللون الأصفر وأسفل أقدامهن وراحت أيديهن بالحناء، أما الوشم الذي لا يمكن إزالته والذي يعتبر وسيلة تزيين للفقيرات والغنيات معا فيقتصر على رسومات صغيرة ومتناثرة، أهالي الصحراء بعيدون كل البعد في هذا المجال عن فناني "نوكا-هيفا" في نيوزيلاندا الجديدة (ف. جاكو، 2013، ص 285).

خاتمة:

من خلال دراستنا للوضعية الاجتماعية للمرأة الجزائرية بصفة عامة والمرأة الصحراوية بصفة خاصة، نجد أن حياتها غنية بغنى موروثها الشعبي والحضاري، وتنوع طبوعها الفولكلورية وتعدد عاداتها وتقاليدها الضاربة في أعماق الذاكرة الصحراوية، والتي تلون حياتها وتعطيها مذاق آخر تليقها عبر جسر التربية الأسرية والتنشئة الاجتماعية، لذلك لا يمكنها التخلي عنها أو إهمالها، فالمرأة الصحراوية تعتبر محركا هاما في مختلف الفعاليات الشعبية التي يعرفها المجتمع الصحراوي، فإلى جانب مشاركتها في الأفراح والأعراس والأحزان نجدها تبادر في تقديم العون المادي والمعنوي للأقارب والجيران وحتى الغير، وتحرص على بقاء واستمرار العلاقات الطيبة معهم، أما على مستوى الأسرة فالزوجة تعمل جاهدة على أن يكون التعاون هو الصفة السائدة في الأسرة، حيث تتحمل الأعباء الملقاة على عاتقها وكذلك أعباء زوجها وأولادها دون أن تنتظر أي مقابل.

قائمة المراجع:

أ- المراجع باللغة العربية:

- إ. العربي. (1983). الصحراء الكبرى وشواطئها. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- أ، سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954. ج 7، (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أمال هاشمي. (2019). حضور المرأة الجزائرية في أدب الاستعمار الفرنسي قراءة لأعمال الكاتبة "أنجال مرافال بفتوان"، مجلة جسور المعرفة، مج 5، ع 4.
- حساني عثمان. (2007). البيئة الاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية من خلال تقارير الأجانب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ.
- دواس أحسن. (2008). صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن 19م من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين "مقاربة سوسيوثقافية". مذكرة ماجستير في الأدب المقارن، جامعة منتوري قسنطينة، كلية الآداب واللغات.
- رمضان رابع. (2012). جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالصحراء الجزائرية من خلال رحلة الأغواط، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 18-19م من خلال المصادر المحلية، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية للمركز الجامعي بالوادي.
- زندري عبد النبي، حجاج أحمد. (جويلية 2019). تمكين المرأة في المجتمع الصحراوي - أموهاغ - مجتمع الطوارق، مجلة العلوم الاجتماعية، مج 8، ع 2.
- طواهرية أم هاني. (2014). تطور الذهنية الاجتماعية بمنطقة توات خلال القرنين الميلاديين التاسع عشر والعشرين - المرأة التواتية أنموذجا. مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة أدرار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية.
- ف. جاكو. (2013). حملة الجنرال كافينيك في الصحراء الجزائرية خلال شهري أفريل وماي 1847، تر: حليلة بابوش، الجزائر: دار الرائد للكتاب.
- قادري إبراهيم عبد الحميد. (2001) تقرت البهجة (قراءة تاريخية - اجتماعية)، مكتبة الإسكندرية، قسنطينة.
- محمد سعيد القشاط. (1994). صحراء العرب الكبرى. (ط1). طرابلس: دار الرواد.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

- A. Maraval, Berthoin. (1934). Chants du hoggar, Paris : éditions d'art, H. Piazza.
- E. Fromentin. (1981). Un Été dans le Sahara. Présentation et Notes par Anne Marie Christine, Par : Editions Le Sycomore .
- G. DEMAGE. (1903). Aventures Merveilleuses de Marius Mercurin, A Travers le Sahara. Paris : Librairies Hachette.

- L. Victor. (1881). Le Sahara Algérien . Paris : Librairie Hachette et Cie.
- VOISIN, André-Roger. (2004). Le Souf Monographie. Algérie : El- Walid.
- (A.M) Goichon. (1927). La vie Féminine au M'zab (Etude de sociologie Musulmane), T.1 ,2 Préface de: William Marçais, Paris : Libirairie Orientaliste Paul Geuthner.
- Dr. Dorothee Cheller. (1895). Voyage Dans L'Aurès - Notes D'un Médecin Envoyé en Mission Chez Les Femmes Arabes. Tizi Ouzou : imp. Nouvelle J.Cheller.
- E. Daumas. Mœurs et coutumes de L'Algérie Tell — Kabylie — Sahara, Paris : Librairie de L.Hachette Cie.
- G. Georges. (1946). les amitiés Sahariennes du père de Foucauld. Paris : B.Artaud.
- G. Mathéas. (1932). Le Congrès International des femmes Méditerranéennes, R. A. T.M de Législation et de Jurisprudence, T.XLVIII, Paris. :JURIS- CLASSEURS.
- Lhote Henri. (1955). Les Touaregs du Hoggar, Paris : éditions Payot.
- N. Faucon. (1889). Le Livre D'Or De L'Algerie. T1, Paris : Librairie Algérienne Et Coloniale.